شعراء معاصرون :

العاطفة الدينية في شعر محرم

للشيخ محمد رجب البيومي

(بقية ما نشر في العدد ٨١٨)

— ٣ —

أما شعر محرم الاجتماعي فقد كان مضمخاً بعبير عاطر من التوجيه الديني والإرشاد الخلقي ، فقد نظر الشاعر نظرات صائبة إلى الأوبئة الخلقية التي تفتك بالأمم الشرقية فتحصد المروءة ، وتطيح بالشرف ، حيث انسابت الأغاني البشرية في ظلام الاحتلال تنفث سمومها في الأجسام الصحيحة ، فإذا الإنسان الطاهر العف يتحول ماردا فاجراً يعب الخمر في نهم ، ويريق الدم المصون في تهتك ، ويلطخ وجهه بآثام فاحشة يندى لها الجبين ، وقد قام محرم بدور الطبيب الحكيم ، فتفحص الداء فحصاً دقيقاً ثم أخذ يشخص الدواء الناجع ، وكان القرآن الكريم قبلته ووجهته ، فنادى بالرجوع إلى آدابه ، وشهر بمن يجترحون السيئات ويقترفون الفواحش ، وقد اتخذ من الجرائم الخلقية التي يرتكبها الإباحيون ، وتنشرها الجرائد اليومية مادة دسمة لإنتاجه . وفي الجزء الأول من ديوانه أقاصيص شعرية تجلي هذه الفضائح ، وقد أحاطها الشاعر بسياج من النصح الأدبي ، والتوجيه الخلقي . وأنك لتلمس لهفة محرم وأسفه حين يتحدث عن شرذمة غاوية ائتلفت على البغي فهوت إلى حمأة الرذيلة تلغ في أرجاسها الشائنة غافلة عن عتاب الله نابذة وراءها عهود محمد وزواجر التنزيل فهو يقول :

أسيت لمسرفين أمان كلاً ... على إدمان لذته أبوه
إذا ما ماتر الفحشاء منهم ... أخو الشهوات غناه أخوه
لهم فتكات أطلس ما يوارى ... دم الهـــلاك غلبه وفوه
عليهم من خزايام سمات ... وما أنفوا العجار فيجحدوه
إذا ما من في الظلماء صيد ... تداعوا حوله فتصـــيدوه
ترمى بينهم فتســـاوروه ... إلى أن قال قائلهم دعوه
فقا النهار وادلجوا إليـــه ... وأكبر همهم أن يبلغوه
أيامرهم بتقوى الله قوم ... وما عرفوا الآله فيتقوه
شباب العار ما تركوا وجاء ... لنا في مصر إلا حيبوه
أناس ربيت النبراء منهم ... وضج العرش مما أحدثوه
أتى التنزيل بالمثلات تترى ... وبالحق المبين فكذبوه
فوا أسفى لعهد الله فيهم ... وعهد محمد إذ ضيعوه !!

وفي ديوان الشاعر من هذا الطراز جذوات مشبوبة تتقد باللوعة فليتها وجدت من يسمع أو يجيب !!

ومع أن محرما قد نادى في سيحاته الاجتماعية بضرورة التعليم كدعامة راسخة يرتكز عليها بناء النهضة ، فقد وجد من الناس من ظن به رغبة عن تعليم الفتاة والنهوض بها إلى ذروة الرقي ، وغم ما استدلا به ديوانه — في الجزء الثاني خاصة — من حث على ثقافة المرأة وإيضاح لمركزها الدقيق الذي تحتله في المجتمع . ولعل هذا الظن الخاطئ قد أتى من مهاجمة الشاعر لدعوة التحرير التي رفع لواءها قاسم أمين ، ونحن إذا نظرنا لهذه الدعوة نجد صاحبها يحث على تعليم المرأة وتهذيبها عن طريق السفور والتعلل من الحجاب ! والشاعر وإن كان من المنادين بضرورة تثقيف الفتاة لا يوافق على السفور مها تكاثرت المبررات ، فاندفع إلى مهاجمة قاسم متأثراً بعاطفته الدينية التي تحرم التبرج تحريماً قاطعاً ؛ وما كان له أن يحيد عن ذلك وهو يضع كتاب الله نصب عينه . ولعله كان ينظر من وراء الغيب إلى ما سيجره السفور من فتن فشدد عليه النكير . فحرم إذن يكتفي بضرورة تعليم الفتاة دون ما عداه ، فليس لها أن ترتع في الأسواق ، وتزاحم الرجال فيما لم تهيأ له من الأعمال ، واستمع حجته في ذلك إذ يقول :

هممنا بربات الحجال نريدها ... أقاطيع ترعى العيش وهي سوائم
وإن امرأ يلقى بليل تعاجه ... إلى حيث تستن الذئاب لظالم
وكل حياة تتم العرض سبة ... ولا كحياة جلفتها المآثم
أتاتى الثنايا الغر والطرف الملا ... بما عجزت عنه اللحى والعمائم
فلا ارتفعت سفن الجواء بصاعد ... إذا حلقت فوق النسور الحوائم

سلام على الأخلاق في الشرق كله ... إذا ما استبيحت في الخدور الكرائم

أقاسم لا تقذف بنفسك تبتغي ... لقومك والإسلام ما الله عالم
ولولا اللواتي أنت تبكي مصابها ... لما قام للأخلاق في مصر قائم
نبذت إلينا بالكتاب كأنما ... سحائبه مما حملن سلاحم
أحاطت بنا الأسد المغيرة جهرة ... ودبت إلينا في الظلام الأراقم
ألا إن بالإسلام داء مخامرا ... وإن كتاب الله للداء حاسم

ولنقرن هذه الصيحة الناقة على دعاة السفور بأحدى صيحات محرم في ضرورة تعليم الفتاة ، لنعلم أن الشاعر لم يحارب تعليم المرأة في يوم من الأيام ، وإنما احتاط لدينه وصرونه ، وتمسك بكتاب ربه وهدى نبيه . وحسب الإسلام منه أن يذود عن مبادئه في قوة ، ويتمسك بحدوده في إيمان ، قال محرم :

ما أبعد الخير والمعروف عن أمم ... تعيش فوضى وترضى بالحياة سدى
وجاهل ظن أن العلم مفسدة ... للبنت فانتقص التعليم وانتقدا
مهلا فرب فتاة أهلكت أسرا ... بجهلها وعجوز أفسدت بلدا
الأم للشعب إما رحمة وهدى ... أو نكبة ما لها من دافع أبدا
لا يذهب الشعب في أخلاقه سببا ... والأم تذهب في أخلاقه سددا
لا تيأسوا وأعدوا الأم صالحة ... فهي السبيل إلى إصلاح ما فسدا

على أن الشاعر لم يهاجم قائما وحده ، بل كان يهاجم من المسلمين من يرى منه تزوعا عن الشريعة ، وكان يتأدب في هجومه بتوجيه الإسلام ، ويسترشد بتعاليمه ، فلا يميل إلى الإسفاف والمهاترة ، أو يعمد إلى التشهير والتنديد ، بل إن قصائده في أعداء الإسلام « كهانوتو وكروص » كانت تخضع إلى المنطق المعتدل وتتحاشى ما ينفر منه الأدب والذوق . ولله محرم ، فطالما جادل بالتي هي أحسن ، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، مع أن الشعراء يبيحون لأنفسهم من الإقذاع في الهجو ما يأبى عنه ذو الخلق الكامل والنبل الأصيل !!

— ٤ —

بقي أن نتحدث عن الناحية التاريخية في شعر محرم ، وهي ناحية هامة شغلت جانبا كبيرا من اهتمامه ، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من إشارة إلى موقف تاريخي طواه الزمن ، فخلده الشاعر ، ولا جرم فقد كانت ثقافته تاريخية إسلامية ، حيث استوعب ما قدر عليه من الصحائف المجيدة التي تجلو عظمة الفتح الإسلامي ويتحدث عن أبطاله المسلمين ، فكان له من هذا الاستيعاب مادة دسمة أكسبت انتاجه قوة ذاخرة ، وأمدت شعره بأسباب متينة من الروعة والتفوق !! وإذا كان الشاعر قوي الإيمان بعظمة القادة البارزين من أعلام الإسلام ، فقد فتحت له عاطفته الدينية أبواب القول فصال وجال في ميدان التاريخ حتى ينفرد وحده بين شعراء العربية بتصوير البطولة الإسلامية تصويراً لا يتعلق بغباره متعلق ، مهما حاول التقليد .

لقد نظر محرم إلى أعظم أبطال الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم فبهرته عظمته الفائقة ، وأخذته روعته الخارقة ، فنظم إلياذة كبيرة تقع في عدة آلاف من الأبيات المختارة المنتقاة ، يسجل بها تاريخ الرسول الأعظم من ميلاده إلى أن جاءه اليقين . وقد قرأت ما وقع لي من شعر الإلياذة فتكدت أستظهره في نهم ، وتأكدت أن بلاغة محمد قد تضحت عليه من بيانها الرائع ، فتطامن له الندى الجوح ، ووقفت يده على النادر اليتيم من الأساليب ، وقد راعني أحد منازع حديثه ، فهو في بدر وأحد يجلجل ويهدر حتى ليسمك الصليل والصهيل ، وقد يعمد إلى الغانية الشموس في موقفه الحامي ، فيخضعها لبيانه المشرق . وللقارىء أن يطالع قصيدته الغائية في فتح مكة فهي وحدها الحجة والدليل .

وكنت أقع في دهشة عجيبة حين أجد الشاعر يتكلم في الموضوع الواحد مرات متعددة ، وهو في كل فريدة من قرائده يطالعك بمعان لم يجش بها خاطره قبل ذلك ، وقد فرض على نفسه أن يحيي رسول الله في كل عام بقصيدتين في مناسبتي الهجرة الشريفة والمولد السعيد . أضف إلى ذلك ما يعرض من المواسم الأخرى كذكرى غزوة بدر ، وذكرى الفتح ! ثم هو بعد هذا كله يشعر بأنه لم يقل شيئاً يجانب ما يليق بعظمة محمد فيقول في مخاطبته :

ما في النوابغ من لبيب حاذق ... إلا وأنت ألب منه وأحذق
والقول مستلب المحاسن عاطل ... حتى يقول المبقري المفلق
أنت المجال الرحب تقصر القوى ... فيه وتمتحن الجياد السبق
حسان منبر وكعب عاجز ... والنابغ الجعدي عان موثق
أطعمتهم فتجاوزوا فيك الذي ... وأبيت فانصرفوا وكل مخفق
لن عذرهم ما أنت من عدة المنى ... إلا وراء مخيلة ما تصدق

والحق أنه — رحمه الله — كان يجد في الذكريات الدينية ظلاً وارفاً يتفيأه في هجير الحياة ، فهي تتيح له الموازنة بين الحاضر والماضي مما تكلمنا عنه قبل ذلك ، كما تمكنه من إسداء النصائح الصادقة لأبناء الدعوة المحمدية في مختلف البقاع